

الراوي العليم بين الحياد الشكلي والموقف النقدي في رواية "القلب العاري" لكamal Berkani

The Omniscient Narrator: Between Formal Neutrality and Critical Stance
in a Novel by Kamal Berkani¹ عيسى بلخباط ² عبد القادر رحيم¹,Aissa Belkhebat ² Abdelkader Rahim

1 جامعة محمد خيضر بسكرة -مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري- (الجزائر)،

aissa.adab@gmail.com2 جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، a.rahim@univ-biskra.dz

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/10/04

تاريخ الاستلام: 2025/07/08

الملخص: مثل الراوي العليم حجر الزاوية في بناء السرد الروائي الكلاسيكي، ليطلّ رغم تطور أشكال السرد المعاصرة، نمطاً مهيمناً يحاكي بأصداً خافتة أزمنة الرواية الأولى. فبينما تتجه الرواية الحديثة نحو سفيضاء الأصوات، لا يزال الجدل النقدي محتدماً حول حضور هذا الراوي، وبخاصة في منطقة التماس بين ادعاء الموضوعية والحياد الذي يشي به، وبين تدخله في مجرى السرد عبر التعليق والنقد. و تتصدى هذه الدراسة لتحليل هذا التناقض الجوهرى، متخذة من رواية "القلب العاري" لكamal Berkani نموذجاً تطبيقياً. ففي ثنايا هذا النص، نسعى إلى تتبع تجليات حضور الراوي العليم، والكشف عن وظائفه المتشعبة. وسنحاول الإجابة عن الأسئلة المحورية التي يطرحها هذا العنصر السردى الفاعل، وذلك في حدود ما يتيحها النص الروائي والدراسة من آفاق للكشف والتحليل.

كلمات مفتاحية: الراوي العليم، السرد، الموضوعية، الأصوات السردية، الرؤية الخارجية

Abstract

The omniscient narrator has consistently been a cornerstone of classic narrative fiction. Despite the evolution of contemporary narrative forms, it remains a dominant mode, faintly echoing earlier novelistic eras. While modern fiction increasingly favors a mosaic of voices, critical debate persists regarding this narrator's presence, particularly where its claimed objectivity and neutrality meet its clear intervention in the narrative flow through commentary and critique. This study aims to analyze this inherent contradiction, taking Kamal Berkani's *The Naked Heart* (القلب العاري) as an exemplary case. Within this text, we seek to trace the manifestations of the omniscient narrator's presence and uncover its multifaceted functions. We will endeavor to answer the pivotal questions posed by this active narrative element, circumscribed by the insights the novel and this study provide for unveiling and analysis.

Keywords: omniscient narrator, Narrative, Objectivity, Narrative Voices, External Focalization.

المؤلف المرسل: عيسى بلخباط، الإيميل: aissa.adab@mail.com

1. مقدمة:

تستخدم الرواية مجموعة من الأدوات السردية التي تتفاعل معاً لبناء عالم روائي متماسك، ومن أبرز هذه التقنيات الأساسية التي لا غنى عنها في تشكيل النص الروائي: السرد مثل، الاسترجاع، الاستباق، الخلاصة، المشهد الحذف، والوقفة، إلى جانب وسائل أخرى تساهم في تشكيل الفضاء الروائي وبناء الشخصيات، إلا أن أهم عنصر يجذب انتباه الروائيين هو الراوي، الذي يُعهد إليه بمهمة نقل الأحداث وأفعال الشخصيات إلى القارئ. وتتنوع أشكال الرؤية السردية وتتعدد تصنيفاتها وفقاً لموقع الراوي من الأحداث، كما تختلف أنماط حضوره في النصوص الروائية بين راوٍ غائب، وراوٍ مشارك، ورواية متعددين. غير أن محور اهتمامنا في هذه الدراسة ينصبّ على نمطٍ بعينه، وهو الراوي الغائب، استناداً إلى ما كشفت عنه قراءة النص الروائي موضوع التطبيق (القلب العاري) لكamal بركاني.

تثير رواية "القلب العاري" لكamal بركاني تساؤلات ملحّة حول طبيعة تدخل الراوي فيها، ومدى تأثير هذا التدخل على موضوعيته وحياديته، بالإضافة إلى وظائفه الأساسية داخل النصّ السردية. يمكن صياغة هذه التساؤلات على النحو التالي: إلى أي مدى يُسهم تدخل الراوي في التعليق وإبداء الرأي حول الأحداث في رواية "القلب العاري" وفي تشكيل الرؤية السردية؟ وهل يمسّ هذا التدخل بموضوعيته وحياديته المفترضة، أم أنه يضيف أبعاداً جديدة لفهم النصّ والعالم الذي يقدّمه؟ ما هي أبرز الوظائف التي يضطلع بها الراوي في رواية "القلب العاري" لكamal بركاني؟ وكيف تساهم هذه الوظائف في بناء المعنى، وتوجيه المتلقي، وتشكيل رؤيته للعالم والشخصيات والأحداث؟

من خلال خطة عمل ترتكز على النقاط التالية :

- الراوي العليم والرؤية من الخارج (تأصيل نظري)

- صور حضور الراوي العليم في رواية "القلب العاري"

- الراوي بين الموضوعية ونقد الواقع في رواية "القلب العاري"

تعتمد هذه الدراسة على المنهج البنوي كأداة أساسية لتحليل مقولة الراوي. يرجع هذا الاختيار إلى ما يتمتع به المنهج من رصيد معرفي ثري وأدوات إجرائية فعالة، تمكّن من تفكيك النص السردية والكشف عن مكوناته الداخلية. كما يُعزز من قدرته على صبر أغوار النص والتوغل في أبعاده الفنية والفكرية.

2. الراوي العليم والرؤية من الخارج (تأصيل نظري):

يُعدّ الراوي محور العمل الروائي، حيث تدور حوله بقية العناصر الفنية، فهو من يكشف عن أحداث القصة وينفض عنها غبار النسيان، وينقلها من عالم المجهول إلى المعلوم عبر أسلوب سردي جذّاب يُغري القارئ بمتابعة الأحداث. فقد احتل هذا العنصر السردى مكانة مركزية في الدراسات النقدية الحديثة، حيث أولته السرديات اهتماماً بالغاً، وسعت إلى رصد أبعاده المتشعبة وتحليل آلياته الداخلية. فانكبّ النقاد على تشريح هذا المكون السردى بمنهجيات متنوعة، محاولين استنطاق أبعاده الجمالية والوظيفية، وتأثيره في تشكيل البنية الروائية. لم يكن هذا الاهتمام مجرد مسح سطحي، بل تجلّى في محاولات جادة لبناء إطار نظري متكامل، يضيء الزوايا الخفية لهذا العنصر السردى، ويكشف عن دوره المحوري في تشكيل ديناميكية النص الروائي. فجاءت الدراسات النقدية بمثابة أدوات كاشفة؛ تكشف عن طبقات المعنى المتعددة، وتبرز كيف يتحول هذا المكون السردى من مجرد أداة حكائية إلى عنصر جمالي يحمل في ثناياه رؤية فنية وفلسفية عميقة، وهكذا تحوّل هذا المكون السردى إلى حقل معرفي خصب، تتقاطع فيه المناهج النقدية، وتتوّج زوايا القراءة، في محاولة لإدراك كنهه وفهم آليات اشتغاله التي تمنح النصّ الروائي حيويته وتقرّده.

ويلخّص الدكتور عبد الله إبراهيم مفهوم الراوي العليم الراوي في الصوت الذي يروي الحكاية، سواء كان كياناً غير مرئي أو شخصية داخل النص، وهو المسؤول عن تقديم الشخصيات بسماتها وعلاقاتها وتناقضاتها، وسرد الأحداث المتعاقبة أو المتداخلة، بالإضافة إلى تحديد الإطار الزماني والمكاني للرواية. كما يقوم بدمج كل هذه العناصر معاً وتقديمها للقارئ بطريقة متماسكة، مما يجعله العنصر الأساسي في تشكيل رؤية العمل الروائي (إبراهيم، 1990، صفحة 117)

ينهض الراوي بوظيفة التّواصل السّردى ، فهو " المرسل الذي يقوم بنقل الرواية إلى المروي له ، وهو بهذا المفهوم يختلف عن الروائي " (عدالة، 2009، الصفحات 11-12)

لقد ظلّ الراوي الغائب حجر الزاوية في البناء السردى للرواية التقليدية، حيث احتكر سلطة السرد بلا منازع. "ويقوم على مفهوم الراوي العالم بكل شيء Narrator Omniscient المحيط علماً بالظاهر والباطن والذي يقدّم مادّته دون إشارة إلى مصدر معلوماته." (سيزا، 2004، صفحة 185)

ولعل أبرز ما يميّز به هذا الشكل من الرواة، أنّه " يتخذ لنفسه موقعا سامياً يعلو فوق مستوى إدراك الشخصيات، فيعرف ما تعرفه وما لا تعرفه ويرى ما تراه وما لا تراه، وهو المتحدث الرسمي باسمها، فلا يسمع القارئ إلا صوته، ولا يرى الأشياء إلا من خلال وجهة نظره" (الكردى، 1996، صفحة 101)

يتمثل جوهر التميز في الراوي العليم في امتلاكه سلطة سردية مطلقة تتيح له النفاذ العميق إلى باطن الشخصيات، وكشف عوالمها الداخلية من أفكار وانفعالات، دون حاجة إلى تبرير هذه المقدرة الاستثنائية، التي يحيطها بهالة من الغموض، كما لو كانت من مقتضيات دوره السردية. ولا تقف قدرته عند هذا الحد بل تتجاوز حدود المكان والزمان، إذ يستطيع مواكبة الأحداث المتزامنة في فضاءات متباعدة، وكأن المعرفة الكلية جزء لا يتجزأ من هويته السردية. من هنا جاء توصيفه بـ"الراوي الإله"، لما يحمله من صفات العرفان المطلق والإحاطة الشاملة التي لا تُضاهى. فالرؤية السردية التي ينتهي إليها هذا الراوي "رؤية خارجية، تصف ما تراه، وتقدم الأحداث والشخصيات بحيادية وصفية دون أن تتبين حدود علاقة هذه الرؤية وهذا الراوي بمادة الرواية. وتسمى هذه الرؤية بـ«الرؤية الخارجية ويسمى الراوي هذا بـ الراوي العليم الذي يوصف بأنه يمتلك قدرة غير محدودة لكسب الأبعاد الداخلية والخارجية للشخصيات." (إبراهيم، 1990، صفحة 119)

وقسم عبد الرحيم الكردي الراوي العليم إلى نوعين بناءً على درجة تدخله في السرد:

1. الراوي العليم المنقح (المعلم/الواعظ): وهو راوٍ يتجاوز نقل الأحداث أو تلخيصها إلى التدخل المباشر بإبداء رأيه الشخصي، سواءً عبر التعبير عن فرحه، امتعاضه، سخرية، أو تشكيكه في الحدث.

2. الراوي العليم المحايد: وهو راوٍ يمتلك معرفة شاملة بكل تفاصيل القصة، لكنه يلتزم، الحياد، فلا يظهر أي موقف أو رأي، ويبقى سلبياً تجاه الأحداث رغم ظهوره في السرد. (الكردي، 1996، الصفحات 109-110)

يُشكّل الراوي الغائب في النسيج الروائي مفارقةً عجيبةً تثير الدهشة؛ فهو وإن توارى خلف ستار الغياب، إلا أن معرفته تتجاوز حدود الواقع، فتفوق - في دقتها وعمقها - ما تعرفه الشخصيات نفسها التي عاشت الأحداث وعاشتها، فكيف لـ"غائب" أن يكون أكثر حضوراً من "حاضر"؟ وكيف يتحوّل مَنْ كان شاهداً على الوقائع إلى كيانٍ باهتٍ أمام سطوة راوٍ لم يزل ولم يسمع، لكنه يخترق العقول ويقرأ الأفكار كما لو كان يقلّب صفحات كتاب؟

إنها مفارقةٌ تتناقض مع منطق الواقع، لكنها تذوب كالدخان أمام سحر الفن الذي لا يعترف بالحدود ولا يخضع للأعراف. فالفنّ - في نهاية المطاف - هو فضاءٌ تتلاشى فيه قوانين الممكن، وتتخطّم فيه قيودُ المنطق، ليخلق عالمه الموازي بعيداً عن شروط الوجود المادي. وهكذا يصبح "الغياب" أعمق حضوراً و"اللامرئي" أكثر وضوحاً، في لعبةٍ سرديةٍ لا تنتهي إلا بانتهاء أسرار الخلق الروائي نفسه، وهو الأمر الذي انتقده هنري جيمس، معتبراً إياه " أنه أدى إلى التفكك وعدم التماسق. حيث أن الانتقال المفاجئ من مكان إلى مكان

أو من زمان إلى زمان أو من شخصية إلى شخصية دون مبرر بل دون الانطلاق من بؤرة قصصية محدّدة تكون نتيجته التشتت وعدم الترابط العضوي بين المقاطع المختلفة في الرواية " (سيزا، 2004، صفحة 186)

لكنّ العصر الزوائي الحديث حمل تحوّلًا جذريًا في التعامل مع هذه الشّخصية السّردية، فبدأت مساحتها تضيق رويداً رويداً، كما تقلصت صلاحياتها التي كانت تشبه صلاحيات الإله في النصوص القديمة، لقد ثار الأدباء والنقاد على هيمنة هذا الراوي المتسلّط، الذي كان يتدخل في أدقّ تفاصيل الشّخصيات، ويصدر أحكامه الأخلاقية والفكرية بسلطة مطلقة. ففي الروايات الكلاسيكية، كان هذا الراوي يمارس دور الخالق العليم بكل شيء الذي لا يترك للقارئ ولا للشّخصيات مساحة للتفسير أو التأويل. فروح العصر الحديث مع ما حملته من قيم الديمقراطية والتعددية، لم تعد تتسع لمثل هذه السلطة السردية المطلقة. فأخذت الرواية المعاصرة تحجم دور هذا الراوي، وتستبدل سلطته المطلقة بتعددية في الأصوات والرؤى. لم يعد السرد حكراً على صوت واحد شامل وليم بل أصبح فضاءً تتصارع فيه وجهات النّظر المختلفة. هذا التّحول لم يكن مجرد تغيير تقني في أساليب السرد بل كان انعكاساً لتحولات فكرية وفلسفية عميقة، ترفض فكرة المركزية والسلطة المطلقة في الأدب كما في الحياة.

1.2 صور حضور الراوي العليم في رواية القلب العاري:

في رواية (القلب العاري) (بركاني، 2016) يعتمد المؤلف على راوٍ غائب ليحكى قصة "عياش"، ذلك الفتى الذي يقع ضحية للفقر المدقع. يروي السارد كيف يضطرّ عياش للتخلّي عن طموحاته الدّراسية تحت وطأة الظروف المادية القاسية، لتصبح مأساته نقطة البداية لسلسلة من الكوارث العائلية: تفكك الأسرة، سجن الأب، ضياع الأم ليجد نفسه في النهاية منبوذاً على هامش المجتمع، ضحية لنظام اجتماعي قاس وظالم، يستهل السارد قصّة "عياش" قائلاً:

" ما كان (عياش) ليبلغ هذا الحدّ من القسوة والجراة لو كتب له أن يواصل دراسته التي انقطع عنها قسراً لظروف طرأت فجأة، لم يكن الذكاء ينقصه، هكذا كان يحدث نفسه كلّما تذكّر الأيام الخوالي المنقضية على عجل وكأنّها سحابة صيف عابرة، حتّى أنّها تبدو له الآن من بُعدٍ سحيق، كسراب يصعب تبيّنه بشكل جليّ، كان لكي يبرهن على ذكائه الحادّ، لا يتوانى عن حلّ الكلمات المنقطعة، والكلمات السهمية، وكلمات السرّ التي تملأ الجرائد طويلاً وعرضاً، لذلك قلما صادفت (عياش) وهو لا يتأبط كومة من الجرائد القديمة والجديدة، وهو إذ ينتهي من ذلك، كان يفاخر النّاس بأنّ رأسه قاموس من العهد القديم .." (بركاني، 2016، صفحة 5)

يستخدم السارد ضمير الغائب "هو" كأول إشارة إلى ابتعاده عن دائرة الأحداث، حيث يروي قصة "عياش" من موقع المراقب الخارجي. يقدم لنا لمحة عن مؤهلاته الفكرية الواعدة التي لم تكن كافية لمواجهة القهر الاجتماعي الذي أجبره على ترك مقاعد الدراسة.

وينسج كمال بركاني عوالم سردية تمزق ستائر الوهم بسكين الوعي حيث يُجسّد شخصية عياش بتفاصيل تلامس أعماق الإنسانية، فيغوص في أغوارها ليضيء زوايا الأزمة وارتداداتها على نفس البطل ببراعة، يُجسّد الكاتب بؤس الواقع الذي يطحن الشخصية تحت وطأة تحالف ثلاثي قاس: سلطة جائرة، ومجتمع صامت، وتقاليد تُكَمِّم الأنفاس حتى الطبيعة نفسها تبدو شريكة في هذه المؤامرة، فتُلقي بثقلها على كاهل "عياش"، الذي ينهار تحت ضغط أزمة متشعبة الوجوه، كأنما الوجود كله يُعلن الحرب عليه. هكذا، يصوغ بركاني سرده كمرآة عاكسة لواقع مُزِر، حيث يدوب الفرد في دهاليز القهر الاجتماعي والمادي، دون أن يجد مفرًا إلا في مواجهة ذاته المثقلة بالأسئلة، ثم يعود السارد بعد صفحتين ليفصل حادثة الانقطاع الدراسي المؤلمة، مصوراً إياها بكلمات حزينة:

أما حكاية الانقطاع عن الدراسة التي ظلت تعذبه كلما زار قبرهما فلقد كانت قدرا محتوما، لم تكن عقوقا في شيء فحينما بلغ السنة الرابعة متوسط، طرأ ما هز أركان البيت الهادئ كزلزال عنيف، سرح أبوه من العمل بعد أن أفلس المصنع الذي كان يعمل به لخمس عشرة سنة، كان ذلك بمثابة صاعقة سقطت على رأسي والديه، في لحظة تبدل كل شيء، ذلك الأب الهادئ، المسالم، المتدين، أصبح هائجا، ينفجر لأتفه الأسباب، فينهال على زوجته بالضرب المبرح.. (بركاني، 2016، صفحة 7)

يستدعي الراوي الأحداث الماضية عبر تقنية الاسترجاع (الفاش باك) مدفوعاً بمبرر سردي قوي، يتمثل في المفارقة الصارخة بين قدرات "عياش" الفكرية الاستثنائية وواقعه المأساوي كضحية للتسرب الدراسي المبكر. يكشف السارد من خلال هذه العودة إلى الماضي أن أسباب الانقطاع تعود إلى عوامل اجتماعية بحتة، حيث يشكل تسريح الأب من العمل المحطة المفصلية التي قلبت حياة الأسرة رأساً على عقب: التحول من الاستقرار إلى الاضطراب نقشي العنف الأسري، غول الفقر الذي يفترس الأحلام. وهكذا يصبح الاسترجاع السردى هنا ليس مجرد تقنية بل شهادة على جريمة اجتماعية بطلها الضحية نفسه، ويعتمد السرد هنا على فاعلية الذاكرة كأداة كاشفة لتاريخ الشخصية المحورية "عياش"، حيث تتبش الذكريات عن ملامح حياته وتكشف للقارئ الأسباب العميقة التي شكلت شخصيته المأساوية. ومن بين الشخصيات المؤثرة في مساره، يبرز الأب كشخصية محورية:

" لم يكن والد عياش بالثرثار الذي يملأ أرجاء الغرفة بالجميل المفيدة وسواها، كان ميالا إلى الصمت الطويل هل لطبع فيه أم حزن دفين؟ ذلك ما لا يعرفه عياش حقاً، يرتشف قهوته ثم يمضي على عجل ليصل في الوقت

المحدّد إلى مصنع النسيج في الطرف الشمالي للمدينة حيث يشتغل، ولا يعود إلّا في المساء ، هناك سيقضي نهاره بين الآلات العملاقة التي تصدر صوتاً يشبه أنين المحتضر، وبين أكوام النسيج والأقمشة، وهناك سيتناول غذاءه في مطعم المصنع، وهناك سينظر إلى حياته بعمق، وسيجدها أقرب ما تكون في حياة تلك الآلات التي تحاصره بضجيجها المقرف لزمان طويل قبل أن تصمت إلى الأبد، بعد أن تكون قد استنفذت عمرها وعمره معا. (بركاني، 2016، الصفحات 16-17)

تتحول صورة الأب في ذاكرة السرد من عمود الخيمة الذي يحمي الأسرة، إلى ظلّ مهزوم يجلد نفسه بعضا الفشل. هذا التحوّل الدراماتيكي ليس مجرد حدث عائلي، بل هو البذرة الأولى لانكسار أحلام عياش، حيث يتحوّل البيت من حاضنة للأمل إلى سجن للضيق. ولم يكن تسريح الوالد من المعمل مجرد خسارة وظيفة بل زلزالاً دمّر ما تبقى من توازنٍ هشٍّ لعائلة كانت بالكاد تمسك بطرف الخيط. هاهو "عياش" يرى عالمه ينهار كجدار طين يغسله المطر: الأب الهادئ الذي تحوّل إلى بركان غضبٍ، يثور على نفسه قبل الآخرين فيُفرغ عجزه في قبضته على زوجته، ويغرق كأس كبريائه المنهار في زجاجات الكحول. ويكشف الراوي عن شخصية والد عياش عبر هذه المقاطع السردية :

" أمّا والدته ، تلك المرأة بشعر أشقر وعينين زرقاوين واسعتين ، فلقد كانت على نقیض من أبيه، لا تتوانى عن زرع الجلبة في كلّ مكان تحطّ فيه ، نحلة في حقّ مزدهر، كان الكلام ينساب من فمها كسيل جارف، تقضي نهارها في ترتيب البيت الصغير، وخياطة ملابس الجارات بمقابل مالي، بآلة اشترتها بما ادخرته من مال أبيه لسنوات كانت تكفي لكي تنمو الشجيرة الصغيرة وتنضج ثمارها ، ولم يكن عياش يعرف أصلاً أو فصلاً لأمّه، يتيمّة، وحيدة تقاحة سقطت هكذا من السماء على أبيه من شجرة مجهولة .." (بركاني، 2016، الصفحات 17-18)

ويعود الراوي في مقطع لاحق، ليكشف عن اسم والد عياش:

" حينذاك ستضع دواير حجرا على قلبها، وتمضي متلقّنة حتّى تغيب داخل سيارة ، ستقول: إنّها الحياة ! ما من سبيل آخر كي أعيش ويعيش عياش، أقصى ما يمكن أن أعثر عليه من عمل ..." (بركاني، 2016، صفحة 66)

كما كشف أيضا عن اسم والد عياش :

" عاد حميد قبل مغيب الشمس بقليل إلى البيت منشرح الصدر، يدندن بين شفثيه أغنية بدوية مسروقة من الزمن الغابر، دون أن تتبعث من فيه رائحة الخمر الكريهة، فأضفى بصوته الرخيم على الغرفة جواً بهيجاً، كانت المرة الأولى منذ عام التي يرى فيها عياش والده مبسوطاً إلى هذا الحد..." (بركاني، 2016، صفحة 54)

يتعمد الراوي في هذه الرواية عدم الكشف الفوري عن هوية بعض الشخصيات المقربة من البطل، مؤجلاً هذه المعلومات إلى صفحات متأخرة، وذلك بهدف التحكم في وتيرة حصول القارئ على المعلومات وإخضاعه لسلطة السارد، فيختار ما يكشف عنه ومتى، مما يدفع القارئ إلى الرغبة في المزيد، ويجعل فعل القراءة أكثر متعة ومعنى. ورغم أن النقد البنيوي غالباً ما يهمل دلالة أسماء الشخصيات، إلا أن الروائيين غالباً ما يولون اهتماماً خاصاً لهذا الجانب، حيث أن اختيار أسماء الشخصيات ليس عشوائياً، بل هو مقصود ويحمل معاني معينة لا تتضح إلا من خلال التعمق في فعل القراءة.

إن تسمية والد عياش بـ"دزاير" ليست اختياراً اعتباطياً، بل تحمل دلالات عميقة تجمع بين الرمزية الثقافية والاجتماعية. فاسم "دزاير" - المشتق من الكلمة الأمازيغية "تزييري/ تيزيري" التي تعني "القمر" كما أن كلمة "زيري" هو الاسم الذي أطلق على زيري بن بولكين الصنهاجي" (قرود، 2022)

تطابق اسم والد عياش "دزاير" مع اسم الوطن الجزائر (الجزائر" بالعامية) ليس من قبيل الصدفة، بل يشكل اختياراً فنياً ذا دلالة عميقة يجسد من خلاله الكاتب رؤيته النقدية. فالشخصية تتحول إلى: رمز للوطن الجريح، تعكس معاناتها أزمة وطن بكامله - تمثل الأم - الوطن التي تعاني من: التهميش (كالأمازيغية الأصل) التشويه (كاسمها المحرف)، الإهمال (كحالها المأساوي).

2.2 - الراوي بين الموضوعية ونقد الواقع في رواية القلب العاري:

يصف الراوي الحي الشعبي الذي يعيش فيه عياش ولا يخفي بين الفينة والأخرى انطباعاته، إذ يقول:

" نزلوا عبر طريق ترابية متعرجة تشقّ التلة صوب الحي الذي يبدو من الأعلى كأنّ جرافة عظيمة مرّت عليه وتفقد السكّان بيوتهم ومتاعهم، كانت الخسائر فادحة، سجّل المسؤولون الذين جاؤوا تهتّم عدّة بيوت وفقدان عشرة أشخاص، وضياح كلّ الأمتعة والدواب.." (بركاني، 2016، صفحة 32)

في هذا المقطع، يرسم الراوي صورة قاسية لمعاناة عياش في حي الصفيح الفوضوي، حيث تتفاقم بؤس ظروفه الاجتماعية بكارثة الفيضان الذي يجتاح البلدة، فيمحو الأخضر واليابس. يظهر المشهد كضربة قاضية تنتهك شخصية كانت تعاني أصلاً من قسوة الحياة، حيث يتحول الفيضان إلى تجسيد مادّي للغرق الاجتماعي الذي يعيشه

البطل. يقدم السارد الوصف بلا تعليق، تاركاً الصورة المفجعة تتحدث عن نفسها، في مشهد يجسد العجز الإنساني أمام قسوة الطبيعة والظلم الاجتماعي معاً:

" إنَّ أقصى ما فعله المسؤولون بعد زيارتهم المسائية المتأخرة، بعد أن هدا كلَّ شيء، هو أنَّ أحضروا معهم شاحنات عملاقة، وزعوا الخيم والأفرشة والمؤن على السكان بحسب احتياجاتهم ، وهكذا أصبح لعياش ثلاث بطانيات جديدة وثلاث مطارج، دون أن ننسى الدقيق وصفيحة الزيت والجبن وعلبة طماطم وأكياس العجائن ما زرع في نفسه سعادة لا توصف. غير أنَّ الشيء الذي ظل يحير عياش دون أن يجد له جواباً ، هو بقاء أولئك الزائرين في سياراتهم ومباشرتهم لمهامهم دون أن تطأ أقدامهم تربة الحيّ الموحلة.." (بركاني، 2016، صفحة 33)

يبرز السارد في هذا المشهد الهوة السحيقة بين ضحايا الكارثة والمسؤولين، حيث تقدّم المساعدات بشكلٍ يكرّس مزيداً من الإحباط:

" لم يحصل إجماع بين سكّان الحي حول تقييم ما سمعوه من كلام المسؤولين، فانقسموا إلى ثلاثة فرق ، الأولى ترى أنَّ كلَّ ما قيل سيطبّق، والثانية رأّت غير ذلك وأنّ كلامهم مجرد ثرثرة لامتناصص الغضب ، أمّا الفريق الثالث فلم يزد على أن قال:

- سننتظر ونرى.

أمّا عياش فلم يسجل في ذاكرته أنَّ أولئك قد عادوا إلى حيّه منذ ذلك الطوفان العظيم.." (بركاني، 2016، صفحة 34)

يكشف الراوي عن طبيعة العلاقة المناسباتية بين السلطة والمواطن، حيث يقتصر تدخل المسؤولين على فترات الكوارث بتقديم مساعدات مؤقتة ووعود سرعان ما تتبخر، دون حلول جذرية ترفع الظلم عن هذه الفئات المهمشة. هذه الممارسات تزيد من اتّساع الهوة بين الطرفين، فتولّد حالة من الغضب الاجتماعي تجاه دولة تزداد فيها التناقضات بين الخطاب الرسمي والواقع المعيشي.

يختصر الراوي هذا الوضع بقوله:

"تلك الحياة الغارقة في الرتابة والوحل، في الحيّ وفي المدينة ، وفي أي مكان آخر من الجزائر ،حياة تكرّر كلّ يوم نفسها بلا عناء فترسم أقدار النَّاس ، وتنبؤ على أحلامهم الصغيرة .إنه لشيء مزعج أن تتعايش الحياة والفوضى جنباً إلى جنب، فيصنعان معا تابوتا لأجلك تابوتا لم يكن اسمه غير الجزائر، جزائر يتعايش فيها الفقر المدقع والغنى الفاحش كما تتعايش المساجد مع الحانات في شارع مزدحم بالوجوه البليغة، جزائر تتقاطع فيها البغال والأحمرّة مع صنوف السيارات المدهشة في الطرقات الضيّقة.." (بركاني، 2016، صفحة 36)

يقدم المقطع صورة لوطن منقسم إلى فئتين متنافرتين: فئة نخبوية تتمتع بكل مظاهر الرفاه والامتيازات، وفئة مُهمّشة تعاني الفقر المدقع والحرمان، في تناقض صارخ مع الشعارات الاشتراكية التي ترفعها الدولة عن المساواة وتوزيع الثروة. هذا الواقع المرير يكشف عن فشل النظام في تحقيق العدالة الاجتماعية، حيث تتعايش الأضداد في فضاء واحد: الثراء الفاحش بجوار الفقر المدقع، والامتيازات بجوار الحرمان، والشعارات البراقة بجوار الممارسات القاسية. لا يكتفي الراوي بكشف جراح "عياش" الداخلية، بل يمتد بصيرته ليرسم بانوراما المجتمع الذي يكبله، فيكشف عن أزمة عميقة تتجاوز الفرد إلى الذات الجمعية. هنا، تتحول معاناة البطل إلى سؤال وجودي: كيف يُحاصر الإنسان في وطنه؟ وكيف تتحول كل محطة من حياته - من المدرسة القاسية إلى الحي الشعبي البائس، إلى المدينة الغربية - إلى حلقة في سلسلة عذاب طويلة؟

الراوي العليم، بهيمته على التفاصيل، يُجسد تلك القطيعة النهائية بين "عياش" ومحيطه، فيجعل القارئ شاهدا على انفصام تراجيدي: إنسانٌ ينهار تحت وطأة مجتمع يرفض أن يحتضنه، فكأنما وجوده نفسه أصبح جريمة تُعاقب عليها الحياة بقسوة.

المسؤولون يزورون الحيّ كشبح عابر، يلقون وعدا فارغة كالفقائيع، ثم يختفون وراء جدران مكاتبهم المكيفة. المشهد لا يحتاج إلى تعليق؛ فغياب التنمية، وخرائط التهميش المرسومة على وجوه الأطفال، تُعلن بصراحة صامتة عن هوة سحيقة بين شعب يُدفن حيا، وسلطة تتعamy عن حقوقه. حتى الكوارث الطبيعية صارت مناسبات وحيدة لتذكّر وجود هذه الأحياء!

الراوي هنا لا يكتفي بسرد المأساة، بل ينتزع قناع الحياد، فينحاز إلى صوت المهمشين. يصف، يُفسّر، ويحكم بمرارة المُنصف: "انظروا.. هذه أرض التناقضات! حيث تُقاسم السلطة الشعب أزماته، ولا تشاركه حلولاً. كأنما الرواية تحولت إلى محكمة تُدين بها الطلاق البائن بين الحاكم والمحكوم، وتكشف أن الهامش ليس مكاناً جغرافيا بل حالة وجودية يُلقى فيها البشر كأوراق مستهلكة.

عياش.. ذلك الفتى الذي حمل في طفولته بذور أحلام ذهبية، ورسم في خياله عالماً يلعب بألوان الغد المشرق. لكن رياح الواقع العاتية ما لبثت أن عصفت بأحلامه، فتحوّلت إلى رماد تذروه الرياح، كأنما لم تكن سوى سراب حلم به ذات مساء، وفي عياش تتعكس مأساة جيلٍ بأكمله؛ أطفال الأحياء الشعبية الفقيرة في الجزائر، الذين تحمل أجسادهم النحيلة أحلاماً أكبر من أكتافهم، فينضجون قبل الأوان. صدمة الشباب المبكرة تحول زهرة عمرهم

إلى ذبولٍ مُرهق، فيصبح الفتى - الذي لم يزل في ربيع حياته - شيخاً منهكاً، يحمل على ظهره أثقال التفكير وأعباء اليأس قبل أن يعرف معنى أن يكون طفلاً.

4. خاتمة:

على الرغم من تراجع حضوره في الرواية المعاصرة، يظل الراوي العليم مفضلاً لدى بعض الروائيين لقدرته الفائقة على الإحاطة بالأحداث وصبر أغوار الشخصيات، فهو يقدم عوالمها الداخلية وتأثيراتها النفسية، وهي ميزة لا تتوفر في غيره من أنماط الرواة.

- اختيَارُ الروائي للراوي العليم لم يكن محض صدفة، بل ضربة فرشاة مدروسة ليرسم من خلالها مأساة "عياش" بكلّ أبعادها. فهذا الراوي، بسلطته المطلقة على أعماق الشخصية وخبايا العالم من حولها، يغوص في دهاليز النفس البشرية ليعبر عن ذلك التمزق الباطني والصراع الوجودي الذي يطحن بطل الرواية.

- ركز الراوي عدسته ببراعة على الانعكاسات النفسية لهذا الحصار على شخصية عياش، مجسداً إياها في سلسلة من الثنائيات المتقابلة التي تبرز الصراع الدائر: السلطة/الشعب، المجتمع/الفرد، والغني/الفقر. هذه الثنائيات لم تكن مجرد تقابلات سطحية، بل كانت تعكس عمق المعاناة والتحديات التي واجهها البطل في عالمه.

- رغم حرص الراوي على الحيادية والموضوعية، لكن ذلك لم يمنعه من التعاطف الواضح مع مأساة البطل عياش في ظل ظروفه القاسية. كما تجلّى موقفه النقدي تجاه السلطة وكيفية تعاملها مع الفئات المستضعفة في المجتمع. -استخدم الروائي ببراعة الراوي العليم كوسيلة لتجسيد رؤيته للعالم وتحقيق مراميه الفنية والفكرية. وهكذا، أصبحت رواية "القلب العاري" بمثابة إعادة تمثيل للأزمة الاجتماعية التي تنسم بغياب العدالة ومعاناة الفرد.

نُقدم الرواية مجتمعاً تتعدم فيه أبسط مقومات الحياة الكريمة، ليصبح فيه الفرد مجرد رقم ضمن ملايين الأرقام. ورغم أن الرواية لا تعكس الواقع حرفياً، إلا أنها تعيد بناء هذا الواقع ضمن حدود الفن، مقدمةً بذلك رؤية عميقة وناقدة لأوضاعه.

5. قائمة المراجع:

- 1- عدالة أحمد محمد إبراهيم. (2009). الجديد في السرد العربي المعاصر. ط1، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام .
- 2- قاسم سيزا. (2004). بناء الرواية. القاهرة: مكتبة الأسرة.
- 3- الكردي عبد الرحيم. (1996). الراوي والنص القصصي. ط2، القاهرة: دار النشر للجامعات.
- 4- إبراهيم عبد الله. (1990). المتخيل السردى "مقاربات في التناص والرؤى والدلالة". ط3، بيروت، لبنان: المركز الثقافى العربى.
- 5- فرود، ع (2022). جانفي .(28 دزاير وليست الجزائر Consulté le 2023, sur أفريكا (يومية أخبارية شاملة/2-215/2 : <https://africanews.dz>
- 6- كمال بركاني. (2016). القلب العاري. ط1، الجزائر: دار المتقف للنشر والتوزيع.